﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥﴾ [النمل: 4 - 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الحديثُ عن جزاءِ المؤمنين يقتضي الحديثَ عن جزاءِ غيرِهم

لمّا بيّن اللّهُ تعالى ما للمؤمنين من الهُدى والبُشرى؛ أتبعه بما على الكُفّارِ من سوءِ العذابِ[1]، وذلك بأنْ أعْقَب ذِكْرَ المؤمنين الموقنين بالبعثِ ذِكْرَ المُنكرين، والإشارةَ إلى قريشٍ ومَن جرى مجراهم في إنكارِ البعثِ[2]؛ إجابةً عن سؤالٍ قد يُثار في نفس السّامعِ عن علّةِ عدمِ هدايةِ مَنْ لا يوقنون بالآخرةِ مع كونِ الكتابِ هدًى وبُشرى[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَيَّنَّا﴾: (زين) أصْلٌ يَدُلُّ على حُسْنِ الشَّيءِ وتحسينِه؛ فالزَّينُ نَقيضُ الشَّيْنِ، يُقالُ: زَيَّنْتُ الشَّيْءَ تَزْيينًا، وأَزْيَنَتِ الأَرْضُ وازَّيَّنَتْ وازْدانَتْ إذا حَسَّنَها عُشْبُها[4]، والزّينَةُ الحقيقيّة: ما لا يشينُ الإنسانَ في شيءٍ مِن أحواله لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، فأمّا ما يَزينُه في حالةٍ دون حالةٍ فهو مِن وجهٍ شَينٌ[5]، ومعنى قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾؛ أيْ: حَسَّنّا لهم أعمالَهم السَّيِّئة، فرأوها حَسَنَةً.

2) ﴿يَعۡمَهُونَ﴾: (عمه) أصلٌ يَدُلُّ على حَيرَةٍ وقِلّةِ اهتداءٍ؛ بل على الخُلوّ من التّمييز والبيان أو الهداية، ومنه قيل: عَمِه؛ أيْ: تَعِبَ وتَحَيَّرَ مُتردِّدًا لا يهتدي لطريقه، وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾؛ أيْ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 541.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 208.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 220.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(5) الرّاغب، المُفرَدات: (زين).

يتردَّدون حيارى ضُلّالًا قد انقلبتْ عليهم الحقائقُ فرأوا الباطلَ حَقًّا والحَقَّ باطلًا[1].

3) ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾: (خسر) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَقْصِ الشَّيءِ بذهاب أجزاءٍ منه فقدًا، يُقالُ: خَسَرْتُ الميزانَ وأَخْسَرْتُهُ، إذا نَقَصْتَهُ[2]، ومنه خَسِر: هلك؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: 2][3]، فيُستعمل ذلك الخسران في المُقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدُّنيا وهو الأكثر، وفي المُقتنيات النّفسيّة كالصّحّة والسَّلامة، والعقل والإيمان، والثّواب، وهو الّذي جعله اللّه تعالى الخسران المبين، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ [الزُّمر: 15][4]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾؛ أيْ: خسروا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامةِ وخسروا الإيمانَ الّذي دعتْهُم إليه الرُّسلُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكفرُ مُستوجبٌ للجزاءَيْن الدُّنْيويّ والأُخرويّ

إنّ الّذين لا يُصَدِّقون بالدّارِ الآخرةِ، ولا يعملون لها، حَسَّنَ اللّهُ تعالى لهم أعمالَهم السَّيِّئةَ، فرأوها حَسَنَةً، فهم يتردَّدون فيها مُتحيِّرين، أولئك الّذين لهم العذابُ السَّيِّئُ في الدُّنيا قَتْلًا وأَسْرًا وذُلًّا وهزيمةً، وهم في الآخرة أشدُّ النّاسِ خُسرانًا[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيتيْن عن الآيتيْن السّابقتيْن:

الاستئنافُ البيانيُّ لبيانِ سببِ استمرارِهم على ضلالِهم

فُصِلت هاتان الآيتانِ لأنّهما وقعتا جوابًا عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ بعد الآيتيْن السّابقتيْن مفادُه: ما حالُ غير المؤمنين مع هذا الكتاب الموصوف بالهُدى والبُشرى؟

(1) الرّاغب، المُفرَدات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (عمه).
(2) ابن فارس، مقاييسُ اللّغة: (خسر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خسر).
(4) الرّاغب، المُفرَدات: (خسر).
(5) مجموعةٌ من المؤلّفين، التّفسير المُيسّر: 1/ 377.

فَوَقَع هذا الاستئناف البيانيُّ لبيان سبب استمرارهم على ضلالهم، ذلك بأنَّ الله يعلم خُبْثَ نواياهم؛ فحَرَمَهم التّوفيق، ولم يَصرِف إليهم عنايةً تنشلهم من كيد الشيطان لِحكمةٍ عَلِمَها اللهُ من حال ما جُبِلَت عليه نفوسُهم، فوَقَع هذا الاستئنافُ بتوابعه مَوقِعَ الاعتراضِ بين أخبارِ التَّنويه بالقرآنِ بما سبق والتَّنويه به بمَنْ أُنْزِلَ عليه بقولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾[1].

غرضُ توالي المؤكِّداتِ في الآيةِ:

تأكيدُ استمرارِهم على كُفرِهم وحيرتِهم وضلالِهم

جاء التّأكيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسميّة، وتكرار ذِكْر المُسند إليه، مرّةً على أنّه اسم ﴿إِنَّ﴾، ومرّةً على أنّه الضّمير في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، و﴿لَهُمْ﴾، و﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، و﴿فَهُمْ﴾، و﴿يَعْمَهُونَ﴾، ومن شأن هذه المؤكّدات أن تُزيل من النّفوس كلَّ شكٍ وشائبةٍ في أمرِ عاقبةِ أولئك الكافرين باليومِ الآخرِ، وتحقُّقُ الوعيد الّذي يستحقّونه، فالتركيبُ من بابِ تحقيقِ الخبرِ، وأنّ المعنى استمرارُهم على الكُفر، وأنّهم بحيث لا يُتوقّع منهم الإيمانُ ساعةً فساعةً، أمارةً لِرَقْمِ الشّقاءِ عليهم في الأزلِ، والختمِ على قلوبِهم، وأنّه تعالى زيَّن لهم سوءَ أعمالِهم فهم لذلك في تيه الضّلال يتردَّدون، وفي بيداءِ الكفرِ يعمهون[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

التعريفُ بالاسمِ الموصولِ قد يأتي في سياقِ المدحِ أو الذَّمِّ

جاء التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ في مقابلِ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ مع المؤمنين، إلّا أنّه في هذا الموضعِ أفادَ ذَمَّهم وتحقيرَهم؛ فإنّ التّعريفَ بالاسمِ الموصولِ يقتضي إبهامًا ثمّ إعلامًا من خلالِ جملةِ صلةِ موصولِهِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 220.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 457، والآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 237.

وجاءت جملةُ صلةِ الموصولِ هنا بالفعلِ المضارعِ المَنفيِّ للدّلالةِ على تجدُّدِ عدمِ إيمانِهم؛ فأومأ إلى أنَّ الحُكْمَ مَنوطٌ بالاستمرارِ على عدمِ الإيمانِ[1].

الموقعُ النَّحويُّ لقولِه: ﴿زَيَّنَّا﴾:

تأكيدُ حصولِ التَّزيينِ بالأزلِ، وأنّ اللهَ علِم منهم الكفرَ فزادهم ضلالًا

وقعت جملة ﴿زَيَّنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ خبرًا لاسم ﴿إِنَّ﴾، وهي جملة فعليّة بالماضي، لتأكيدِ حصولِ التّزيينِ بالأزلِ وأنّه محتومٌ عليهم محكومٌ، بسبب عدمِ إيمانِهم بالآخرةِ، فلم يكن كفرُهم بالآخرةِ نتيجةَ تزيينِ الأعمالِ؛ ولكن كفروا فزادهم الله مرضًا، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ [غافر: 31].

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿زَيَّنَّا﴾:

وقوعُ التّزيينِ من آثارِ التّكوينِ

أَوْمَأَ جَعْلُ الخبرِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ إلى أنّ هذا التّزيين حُكْمٌ سَبَق وتقرّرَ من قبل، وحَسْبُكَ أنّه من آثارِ التّكوينِ بحَسَبِ ما طرأ على النّفوسِ من الأطوارِ[2].

سِرُّ إسنادِ الزّينةِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

عواقبُ التّزيينِ وخيمةٌ

أُسندتِ الزّينة إلى ضميرِ العَظَمَة في قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا﴾؛ لبيانِ عظيمِ أثرِها عليهم، وتحذيرِهم من عواقبِها، ووجَّه ابنُ عاشور معنى إسنادِ التَّزيينِ إلى الله تعالى فقال: "وَتَزْيِينُ تِلْكَ الأَعْمالِ لَهُم: تَصَوُّرُهُم إيّاها في نُفوسِهم زَيْنًا، وإسْنادُ التَّزْيينِ إلَى اللهِ تَعالَى يَرْجِعُ إلَى أمرِ التَّكْوينِ؛ أيْ: خُلِقَتْ نُفوسُهُم وعُقولُهُم قابِلَةً لِلانْفِعالِ وقَبولِ ما تراهُ من مساوئ الاعْتِقاداتِ والأَعْمالِ الّتي اعْتادوها، فإضافَةُ أَعْمالٍ إلَى ضَميرِ الّذين لا يُؤْمِنونَ بِالآخِرَةِ يَقْتَضي أنَّ تِلْكَ الأَعْمالَ هيَ أَعْمالُ الإشْراكِ الظّاهِرَةُ والباطِنَةُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 221.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 221.

فهُم لِإِلْفِهِم إيّاها وتَصَلُّبِهِم فيها صاروا غَيْرَ قابلينَ لِهَدْيِ هَذا الكِتابِ الّذي جاءَتْهُم آياتُهُ، فإسْنادُ تَزْيينِ أعْمالِ المُشْرِكينَ إلَى اللّه في هَذِه الآيَةِ وغَيْرِها مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: 108] لا يُنافي إسْنادَ ذَلِكَ إلَى الشَّيْطانِ في قَوْلِه الآتي: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24]؛ فإنَّ وسْوَسَةَ الشَّيْطانِ تَجِدُ في نُفوسِ أولَئِكَ مَرْتَعًا خِصْبًا ومَنْبَتًا لا يَقْحَلُ؛ فاللّه تَعالَى مُزَيِّنٌ لَهُم بِسَبَبِ تَطَوُّرِ جِبِلَّةِ نُفوسِهِم مِنْ أثَرِ ضَعْفِ سَلامَةِ الفِطَرِ عِنْدَهُم، والشَّيْطانُ مُزَيِّنٌ لَهُم بِالوَسْوَسَةِ الّتي تَجِدُ قبولًا في نُفوسِهِم"[1].

إسنادُ الزّينةِ إلى الله بين الحقيقةِ والمجازِ:

قابلَ الجاحدونَ إنعامَ الله تعالى بمتاعٍ بالشّهواتِ

إسنادُ التّزيينِ إلى الشَّيطانِ في قولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: 24] حقيقةٌ، وإسناده إلى اللّه ﷻ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يُحمل على المَجاز من طريق الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، حيث استعار التَّزيين للتَّمتيع، فكأنَّه زَيَّن لهم بذلك أعمالَهم؛ بما رَكّبَ فيهم مِن الشَّهَوات، ولِما متّعهم بطول العمر وسَعة الرّزق، وجعلوا إنعام اللّه بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعةً إلى اتّباع شهواتهم وبَطَرهم وإيثارهم الرَّوْح والتَّرفُّه، ونفارهم عمّا يلزمهم فيه التّكاليف الصَّعبة والمَشاقّ المُتعبة، فكأنّه زيّن لهم بذلك أعمالَهم[2].

ولو أُسنِد التَّزيينُ إلى اللّه حقيقةً لكان أصوبَ، لِكَون التَّركيب من بابِ تحقيقِ الخبرِ، وتأكيد الحكم، وأنّ المعنى استمرارهم على الكفر، لا رادّ لقضاءِ اللّه ولا مُعَقِّب لِحُكمه، وأنّهم بحيث لا يُتوقّع منهم الإيمانُ ساعةً فساعةً، أمارةً لرَقْمِ الشَّقاوةِ عليهم في الأزلِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 220 - 221.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 348.

والختم على قلوبهم، وأنّه تعالى زَيَّن لهم سوء عَمَلِهم، فهم لذلك في تيه الضَّلالة يتردَّدون، وفي بيداءِ الكفرِ يعمهون[1].

فالشَّيطانُ سببُ الإغواءِ، ووسيلةُ تزيينِ الأعمالِ في نفوسِ المشركين، واللّه جلّ في علاه مُسبِّبُ الأسبابِ، خالِقُ كلِّ شيءٍ، له الكمال والجلال في أسمائِه وصفاتِه، وله الحكمةُ البالغةُ في أفعالِه وأحكامِه، الخير في يديه، والشرّ ليس إليه، خالِقُ كلِّ نَفْسٍ ومُسَوّيها، ومُلهِمُها فجورَها وتقواها.

فهو تعالى مُزَيِّنٌ للمُشركين بسببِ تطوُّرِ جِبِلَّةِ نفوسهم من أثر ضعف سلامةِ الفِطَر عندهم، والشّيطانُ مُزَيِّنٌ لهم بالوسوسة الّتي تجدُ قبولًا في نفوسِهم.

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمْ﴾، ونكتةُ تقديمِ شبه الجملةِ:

مدارُ الحديثِ ومناطُ العنايةِ مَن لا يؤمنُ بالآخرةِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ قد تكون للتّعليل؛ أيْ: لأجلِهم، وقد تكون للتّقويةِ، وقُدّم شبه الجملة ههنا لأنّ مدارَ الحديثِ عنهم وعن جزائِهم، فالتّقديمُ قائمٌ على أهمّيةِ الأمرِ المُتَحدَّثِ عنه هنا.

نكتةُ إيثارِ لفظِ العملِ وجمعِه:

كثرةُ الأعمالِ وكثرةُ إضلالِهم بها

عَبَّرَت الآيةُ الكريمةُ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ عن التّزيينِ بأنّه كان لأعمالِهم على سبيلِ الجمعِ، فلم يَقُلْ: (عَمَلَهم)، أو (فِعْلَهم)، أو (صُنْعَهم)؛ لأنّه أرادَ هذه الأعمالَ الّتي تقع بنيّةٍ وقَصدٍ ويمتدُّ زمانُها، وجمعُها هو للدَّلالة على كثرتها، وكثرةِ إضلالِهم بها.

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾:

الإيذانُ بكمالِ عُتوِّهم وكِبْرِهم

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ لترتيب المُسبَّب على السَّبب، لبيان أنّ ما بعدها مُترتِّبٌ على ما قبلها؛ أيْ: ترتَّبَ على تزيينِ الأعمالِ القبيحةِ بأنّها حسنةٌ مُشتهاةٌ للطّبعِ أنّهم يعمهون.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 456 - 457، وابن المُنيّر في هامش الكشّاف: 3/ 348.

أو تكون لترتيب ضِدّ المُسبَّب على السَّبب، إن قلنا بأنّ تزيين الأعمال بمعنى بيان حُسنها في نفسها، فيكون معنى الآية: (بيّنّا لهم منافع أعمالهم فلَم يعملوا بمقتضاه) كما في قولك: وعظتُه فلم يتّعظْ، وفيه إيذانٌ بكمالِ عُتوِّهم ومُكابرتِهم وتعكيسهم في الأمورِ[1].

نكتةُ مجيءِ الفاصلةِ جملةً اسميّةً:

العَمَهُ فيهم راسخٌ مُتمكّنٌ

فُرِّعَ على تزيين أَعْمالِهم لهم أَنَّهُم في عَمَهٍ مُتَمَكِّنٍ منهم راسخٍ فيهم بِصَوْغِ الإخبار عنهم بذلك بالجُملَةِ الاسميَّةِ ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ لما فيها من معاني الثّبات والاستمرار، تأكيدًا على أنّ العَمَه فيهم راسِخٌ مُتمكِّنٌ.

فائدةُ صيغةِ المُضارعِ ﴿يَعْمَهُونَ﴾:

أفادت صيغَةُ المضارع أَنَّ العَمَهَ مُتجدِّدٌ مُسْتَمِرٌّ فيهم، فلا يرجعونَ إلى اهتِداءٍ؛ بسببِ عدمِ انفكاكِهم عنه؛ ذلك أَنَّهُم يَحْسَبونَ أَنَّهُم على صَوابٍ[2].

نكتةُ فصلِ قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ﴾:

وصفُ الحالِ يُثيرُ السّؤال عن المآلِ

وقعتْ هذه الآيةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ استئنافًا بيانيًّا بعد الآيةِ السّابقةِ؛ لأنّها جاءت لتُجيب عن سؤالٍ مُقدَّرٍ حول جزاء أولئك الضّالّين المُتردِّدين في الدُّنيا والآخرة.

غرضُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيدِ:

أفادَ التّعبيرُ باسمِ الإشارةِ هنا وصْفَهم بالبُعدِ في الضّلالِ

أفادَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ والمستعمَل في الأصل مع البعيد، بيانَ بُعدِ دَرَجَتِهم في الضّلال بإنزال البُعد في الدَّرَكة منزلةَ البُعْد الحِسّيّ.

بلاغةُ القصرِ بتعريفِ طرفي الإسنادِ:

في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وقعت

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 272، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5431.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 221.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأً والاسمُ الموصول خبرًا لها، وكلاهما معرفةٌ أفاد تعريفهما القَصْرَ الإضافيَّ، فالعذابُ كأنّه ليس لأحدٍ إلّا لهم، وفي أسلوبِ القصرِ هذا مزيدٌ من الوعيدِ والتّهديدِ لهم.

في قصرِ العذابِ زيادةٌ في التّهديدِ

غرضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

أفاد التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ ذَمَّهم والنَّعيَ عليهم بهذا الجزاءِ، وجاءت جملةُ صلةِ الموصولِ اسميّةً ﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ للدّلالة على ثباتِ العذابِ وتأكيده بالنّسبة لهم، فهو أمرٌ ثابتٌ مُتحقّقٌ لهم.

في التّهديدِ بالعذابِ ذَمٌّ وقَدْحٌ

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمْ﴾:

اللّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قد تكون لامَ الاستحقاق؛ لكونهم استحقّوا هذا العذاب، وقد تكون لامَ التّعليلِ؛ فهذا العذابُ ما كان إلّا لأجلِهم، ويمكن أن تكون للتّخصيصِ على سبيلِ المبالغةِ؛ للإشارةِ إلى أنّهُم في حالَتِهم هذه قد هُيِّئَ لهم سوءُ العَذابِ[1].

العذابُ استحقاقٌ يُنالُ جزاءً لسوءِ الأعمالِ

نكتةُ تقديمِ شبه الجملةِ ﴿لَهُمْ﴾:

أفادَ تقديمُ شبه الجملةِ ﴿لَهُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ تعجيلَ ما يَضُرُّهم، ويُمكن حملُ سَبَبِ التّقديمِ على التّخصيصِ وكأنّهم وحدَهم المخصوصون بالعذابِ؛ مبالغةً في تهديدِهم والنّعيِ عليهم.

التّخصيصُ بالعذابِ مبالغةٌ في الوعيدِ

نكتةُ وصفِ العذابِ بالسّوءِ:

﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أيّ: أشدُّه وأفظعُه، وأصلها: العذابُ السّوءُ، فالسّوءُ هو وصفٌ للعذاب، ولكن لمّا كان هذا العذابُ فظيعًا جدًّا عبّر عنه بقوله: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ على معنى: أشدُّ وأسوأُ ما في هذا العذابِ كان بانتظارهم.

لا عذابَ أشدُّ من عذابِ الكافرين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 222.

معنى (أل) في ﴿ٱلْعَذَابِ﴾:

يشملُ العذابُ الدُّنيا والآخرةَ

أفادَ تعريفُ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ هنا الاستغراقَ ليعمّ سائرَ أنواعِ العذابِ الدُّنيويِّ - كما هو ظاهرٌ - والأخرويّ، أو كليهما، فالظّاهر أنّه ليس مُقيَّدًا بالدُّنيا؛ بل لهم ذلك في الدُّنيا والآخرة[1].

معنى الواو في قولِه: ﴿وَهُمْ﴾:

لا أخسرَ مِمَّن اجتمعَ عليه العذابُ الدُّنيَويُّ والأُخرَويُّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ قد تكونُ عاطفةً، عطفت الجزاءَ الأُخرويَّ على الجزاءِ الدُّنيَويِّ؛ إذا كان المُرادُ من سوءِ العذابِ ما لحقهم في الدُّنيا من القتلِ والأسرِ، أو من سكراتِ الموتِ، ويكون قولُهُ: ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ ليس للمفاضلةِ، وإنّما للمبالغةِ في جزائِهم، ويحتمل أن تكون واوًا للحالِ، وقولُه: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ جملةً حاليّةً، والمُرادُ عندئذٍ أنّ عذابَهم الأخرويَّ أشدُّ وأبلغُ من عذابهم الدّنيويّ، فتكون: ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ للمُفاضلة.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة: ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾:

من وجوه العنايةِ بعذابِهم تخصيصُه بهم في الآخرةِ

إن كان المُرادُ بالخُسرانِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ خسرانَ الآخرةِ دونَ الدُّنيا، فتقديمُ شبه الجملة ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ للتّخصيص، وإن كان المُراد بيانَ أنّ خسارة الآخرة أشدُّ وأنكى من عذاب غيرهم؛ فالتّقديم عندئذٍ للاهتمام والعناية بعذابهم، ولا يتعارض ذلك كلُّه مع مراعاةِ الفاصلةِ بعد مراعاةِ المعنى[2].

بلاغةُ القصرِ ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾:

أفادَ أسلوبُ القصرِ قَصْرَهم على خسارةِ الآخرةِ دونَ غيرِهم

من المُحتَمَل أن تكون (هم) الأولى في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ مبتدأً، والجملة الاسميّةُ المكوَّنة من مبتدأٍ ثانٍ وخبره ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ هي خبرها، ويكون القصر هنا مُتحقِّقًا من تعريفِ طرفَي الإسنادِ في الجملتيْن الاسميّتيْن، وتكون فائدةُ الإتيانِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 209.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 236.

بالخبرِ جُملةً اسميّةً الدّلالةَ على ثبوت هذا الوصف وتمكُّنه فيهم، ويحتمل أن تكون ﴿هُمُ﴾ الثّانية ضميرَ فصلٍ أُتي به بين المبتدأ وخبرِه للقَصْرِ؛ فيتحقّقُ القصرُ من طريقيْن؛ أيْ: ما يخسر في الآخرةِ إلّا هَؤُلاءِ، فيكون من قصرِ الصِّفة على الموصوفِ، والقَصْرُ إضافيٌّ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

استحقّ الكفّارُ لعدمِ إيمانِهم بالآخرةِ أن يكونوا أخسرَ من كلِّ خاسرٍ

تقدَّم في شرحِ المُفرَدات أنّ الخسرانَ قد يقعُ في المُقتنياتِ الخارجةِ كالمالِ والجاه في الدُّنيا وهو الأكثر، وفي المقتنياتِ النّفسيّةِ كالصّحّةِ والسَّلامةِ والعقلِ والإيمانِ والثّوابِ، وقد يقع في كليهما، والإتيان بصيغة التّفضيل هنا مع تعريفهم بـ(أل) يفيدُ المبالغةَ في استغراقِ هذا الخسرانِ لهم في الدّاريْن، سواءٌ أكان هذا الخسرانُ ماديًّا أو معنويًّا.

خسرانُهم في الآخرةِ أعظمُ منه في الدُّنيا

لفظ ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ على صيغة أفعل التَّفضيل، والتّفضيل باعتبار حالَيهم في الدّاريْن؛ أيْ: هم في الآخرة أخسر منهم في الدُّنيا، لا غيرهم كما يدلّ عليه تعريف الجزأيْن، على معنى أنّ خسرانهم في الآخرة أعظم من خسرانهم في الدُّنيا من حيث إنّ عذابهم في الآخرة غير منقطعٍ أصلًا، وعذابهم في الدُّنيا منقطعٌ، ويحتمل التّفضيل باعتبار ما في الآخرة؛ أيْ: هم في الآخرة أشدّ النّاس خسرانًا لا غيرهم، لحرمانهم الثّواب واستمرارهم في العقاب، بخلاف عصاة المؤمنين، ويلزم من ذلك كون عذابهم في الآخرة أعظم من عذابهم في الدُّنيا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العمى والعَمَه:

العمى عمى البصرِ، والعَمَهُ عمى البصيرةِ

يختلف العَمَهُ عن العمى بأنّ العمى عمى البصر، والعمه عمى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 219.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 19/ 236.

البصيرة، وينشأ عنه التّخبّط، سواءٌ التخبّط الحسّيّ من عمى البصر، أو التّخبّط في القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة، واللّه تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجّ: 46] ويقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: 125 - 126]؛ فكأنّ عمى البصيرة في الدُّنيا يُعمي بصرَ الإنسانِ عن رؤية آياتِ اللّه في كونِهِ، ويُعميه عن الإيمانِ والمنهجِ[1].

العملُ والفعلُ والصُّنع:

الفعلُ أعمُّ من العملِ، والعملُ أعمُّ من الصُّنعِ

الفِعلُ عامٌّ لِما كان بإجادةٍ وبدونها، ولِما كان بعلمٍ أو بغير علمٍ، وبقصدٍ أو بغير قصدٍ، ولِما كان من الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ[2]، والعملُ: كلُّ فعلٍ يكون من الحيوانِ بقصدٍ؛ فهو أخصّ من الفعلِ[3]؛ لأنَّه يُقال لِما كان من الحيوانِ دون ما كان من الجمادِ ولِما كان بقصدٍ وعلمٍ دون ما لم يكن عن قصدٍ وعلمٍ[4]، والصُّنع: إجادةُ الفعلِ، فكلُّ صُنعٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صنعًا، ولا يُنسب الصُّنعُ إلى الحيواناتِ والجماداتِ كما يُنسب إليها الفعل[5].

ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الصُّنعَ أخصُّ المعاني الثّلاثة[6]، والفعلَ أعمُّها، والعملَ أوسطُها؛ فكلُّ صُنعٍ عملٌ، وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[7].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/ 162.
(2) الرّاغب، المُفرَدات: (فعل).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (عمل).
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 322.
(5) الرّاغب، المُفرَدات: (صنع).
(6) الرّاغب، المُفرَدات: (فعل).
(7) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 323.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»